على الغلاف

في ذكراه الثلاثين

من الشعب وإلى الشعب

بيار أبي صعب

ثلاثون عاماً؟ لا نكاد نصدّق أن كل هذا الوقت مرّ على رحيل عاصي. يقال إن الكبار لا يرحلون، بل يحومون حولنا، يتلصّصون على حياتنا، ويستوطنون وجداننا، يرافقون لحظات الفرح والأسى والغضب والنشوة والأحلام غير المكتملة، يتركون بصماتهم الخفيّة على أيّامنا، ويعشّشون في لحظات معيّنة من عمرنا الهارب. هذا الكلام ينطبق على الفنّانين الذين صاغوا الوجدان الشعبي والثقافة الوطنيّة... وبالتحديد على عاصي الرحباني (1923 ـ 1986). عملاق عاش في جلد رجل بسيط، يشبهنا ويختزن حكاياتنا. رجل حسّاس وخصب ونزق، يحوّل كل ما يلمسه إلى أغنيات ومسرحيات. اخترع لنا لغة، ووطناً من أوهام، وقصص حبّ لا تنتهي، وقرية أبديّة يتصارع فيها الخير والشر، ووطناً نموذجيّاً من الكرتون نفسه الذي تصنع به ديكورات المسرح. وجمّد الزمن عند الطفولة المنسيّة «على سطح الجيران»... ورحّل أوّل الصيف، في التاريخ الذي كان وزير فرنسي قد طوّبه، قبل أربع سنوات، عيداً للموسيقى. منذ ذلك الحين نحيي ذكرى عاصي ونحتفل بـ«عيد الموسيقى» ونستقبل الصيف في اليوم نفسه. لكن أين كنّا كل هذه المدة؟ ولماذا لم ننتبه إلى الوقت ينسل من بين أصابعنا؟ كل شيء تغيّر، والأمور على حالها. تغيّرت أسماء السماسرة والقتلة والطغاة، تعاقب المخاتير ورؤساء البلديّة، وسُرقت «جرار» كثيرة، وما زال «الغريب» ينشر الذعر في لاوعينا الجماعي، وما زالت السيارة «مش عم تمشي» رغم كثرة «الدفشات». وكم مدلج مات أمام البوابة! ولبنان هذه الكذبة التي صارت زلمة ـ مثل راجح في «بياع الخواتم» ـ يحاول جاهداً أن يبقى وطن الأوبريت الرحبانيّة.

نستعيد اليوم عبقري المؤسسة الرحبانيّة، في زمن الطوفان، كأنّنا نتمسّك بالثوابت التي يرمز إليها ويمثّلها، كأننا نحجّ إلى الزمن السّعيد على رغم ثغراته الجوهريّة، وهشاشته، وكل الأخطاء والأكاذيب والتنازلات التي أوصلتنا إلى هنا. حين نبحث عن إحياء الذاكرة المضيئة، عن صحوة وطنيّة، عن الشعر والجمال، عن القدس والشام ومكّة وبغداد والأندلس، عن رندلى ويارا وجلنار، عن راحة البال والطمأنينة والبساطة، وحتى عن السذاجة الأولى صنو الحبّ الأوّل، نرى أمامنا الرحابنة. نقول عاصي، ونفكّر بالمؤسسة الرحبانيّة بأقانيمها الثلاثة، عاصي، والراحل الكبير منصور، والفنانة الخالدة فيروز التي ما زلنا نطالبها بالكثير. نقول عاصي، ونفكّر بزياد الابن الرهيب المعتكف في الصمت، وقد زعزع أسس وطن الأوبريت، وتوّج التركة العظيمة بوعيه النقدي والسياسي... وتحيّته «إلى عاصي». عاصي كل هؤلاء، وغيرهم أيضاً. في الضوء، وخلف الستارة المخمليّة حيث تحدث الأمور فعلاً. العائلة الرحبانيّة الكبيرة والصغيرة. ريما المؤتمنة على الألبوم العائلي، والتي تطالعنا اليوم بفيلم جديد، يحفر في الوجدان الجماعي... عاصي هو ذلك الجذع الصلب الذي تدين له الموسيقى العربية بالكثير. ما زال حاضراً بيننا، على الأثير، وفي الأسطوانات القديمة 33 لفة التي تعود اليوم إلى الواجهة، وفي أكداس الأقراص المدمجة، وعلى اليوتيوب وفي لوائح الـmp3 التي لا تنتهي. في أرشيفات سريّة نعرفها ولا نعرفها. وعلى لسان الناس، هؤلاء الذين استقى منهم الرحبانيان ما أبدعاه من قصائد وألحان.

نستعيد عاصي في الذكرى الثلاثين، مرددين مع فيروز التي غنّت له يوم تعب دماغه، من كلمات منصور وألحان زياد ابن السابعة عشرة: «سألوني الناس عنك يا حبيبي». إنه هنا أكثر من أي وقت مضى، عاصي. وسط هذا الخراب العظيم الذي يلف المنطقة، وسحب الدخان الكثيفة في سماء لبنان. نستعيد صورة «الأب» بعدما تساقطت التماثيل وانهارت الأساطير، وسط غياب مخجل، فظيع، للدولة اللبنانيّة. أي دولة؟ دولة قاطعي الطرق، وملوك الطوائف؟ الدولة البائسة التي يحكمها سماسرة وقوادون ولصوص، كما تختصرها أغنية «بهالبلد كل شي بيصير»، من الطبيعي ألا تعرفك... وإن عرفتك فلن تحبّك! لكن ما همّ؟ من بيروت ودمشق وتونس والجزائر... حتى جبل الشيخ ودير الزور وحيفا المحتلة، نتوارث أغنياتك. تمثالك الحقيقي في وجدان الشعب. كأي فنان عظيم على امتداد التاريخ.

مكانه اليوم بين الملحّنين الخالدين

عاصي وفيروز في الستينيات... مسيرة صاخبة وقصة فريدة

بشير صفير

يُروى على سبيل النكتة أنّ طالباً في معهدٍ موسيقي أمضى سنواتٍ في الدراسة مركزاً جهوده على مادة التأليف. أراد أن يصبح مؤلفاً خلوقاً مسلّحاً بشهادة ممهورة بختم المعهد وبتوقيع آسرٍ وواثقٍ كشخصية صاحبه، مديرِ المعهد الدكتّور في الموسيقى. لم يرضَ الطالب أن يكون عازفاً ينفّذ مدوّنات كتبها غيره. هذه إهانة.

هكذا، وطلباً للعُلى، سهر الليالي وكدّ وتعِبَ على وضع المقطوعة الموسيقية التي تخوّله نيل الشهادة التي ينتظرها صدر الدار بصمت. قبيل التقدّم إلى الامتحان، راح الشاب الطموح يحلم: تصفيق حاد، آلاف تهتف باسمه، شهرة تتخطى حدود التاريخ واسم عصيّ على الزمن، إلخ... كل هذه الغبطة أعدمتها علامة معدومة منحته إياها اللجنة الفاحصة: واحد على عشرين! خرج من الصفّ، متوجّعاً أغلب الظن إلى أقرب معالج نفسي، مروراً بأحد أروقة المعهد حيث صادف تمثالاً نصفياً لبيتهوفن يزيّن المكان كما هي الحال عموماً في معظم المعاهد الموسيقية. توقّف التلميذ المهزوم أمام المؤلف الألماني ذي النظرة الحادة، مدّ رأسه صوبه قليلاً ودَنْدَنَ على «مسْمَعه» متهكماً مقهوراً، ومُمَيِّعاً حرف النون: «نَ نَ نَاااا»... مقلداً بذلك النوتات الأربع التي يستهل بها المؤلف الأصمّ سمفونيّته الخامسة، والتي تعتبر من أشهر النغمات في التاريخ رغم بساطتها ومحدوديتها لناحية عدد النوتات المستخدمة فيها (أربع نوتات) وتنوعها (نوتتان).

عظيمة هذه النكتة الموسيقية. فعدا عن الضحك التي ينتج منها — والضحك مقدّس — تشرح دلالاتها كل المسألة المتعلّقة بالفارق الجوهري وغير القابل للتفسير بين اللحن البسيط واللحن التافه. بين اللحن البسيط الجميل الخالد واللحن المعقّد الفارغ العليل. والأهم أنها توفّر علينا، اليوم، في الذكرى الثلاثين لرحيل عاصي الرحباني (4 مايو 1923 - 21 يونيو 1986)، شرحاً لصفةٍ يتمتّع بها الأخير ويصعب تبيان ماهيّتها بالكلام، أمّا بالموسيقى فمستحيل.

لكن، هل يُعقل استهلال استعادة ذكرى رحيل كبير كعاصي الرحباني بنكتة وباستعداد للضحك وبرغبةٍ في الإضحاك؟ نعم، ولمَ لا؟ مجرّد أننا ما زلنا (وسنظل) نستعيد ذكراه، يعني أنه لم (ولن) يمت. وفي هذا فرح كبير والضحك أعلى أنواع الفرح، لأنه فرحُ لاواعٍ في لحظات ذروته. إنه نوعٌ من الفرَح لديه قدرة على تغيير ملامح الإنسان لشدّة كثافته. تماماً كالحزن اللاواعي، أي البكاء. المذهل أنهما يلتقيان أحياناً حيث يصبح البكاء الشديد مشابهاً في الصوت والصورة للضحك الشديد... وغالباً ما تنهمر دموعنا في نوبة ضحك.

> كان عاصي يعتبر أن الجمهور يحكم بشكل صحيح على العمل الفني

بالبكاء، بالضحك، بحالة من اللاوعي نتذكّر من لا ننساه لحظة أصلاً. ها قد بدأنا بالوجدانيات على ما يبدو. لنعد إذاً إلى النكتة وتحديداً إلى تفصيلٍ مهم فيها. هذا التفصيل هو أساس النكتة، بحيث أنه الضدّ الذي يصطدم بنقيضه لمفاجأة الدماغ وجعله «ينفجر» ضحكاً. والمقصود تحديداً الثنائية المؤلّفة من العلامة المتدنية مقابل الجهد والتعب والسهر. بمعنى آخر، لو رؤينا الطرفة ذاتها وقلنا إن التلميذ/الأضحوكة نال علامة عالية، لفشلت النكتة. لكن، بجدّ، ماذا يغيّر في واقع الحال لو أنه، في الحقيقة، نال عشرين على عشرين؟ لا شيء. المعيار ليس العلامة بل من يضعها. والعلامة على التأليف (وتحديداً في مجال التلحين... أي خلاصة خلاصات التأليف) لا يضعها سوى المجتمع بأكمله وعلى مدى سنوات. عاصي الرحباني هو الملحّن الذي نال وسينال أعلى العلامات على معظم أعماله (وعبارة «معظم أعماله» تنطبق على باخ وموزار وبيتهوفن شخصياً... ولا أحد في التاريخ تنطبق عليه عبارة «كل أعماله»). وهنا السؤال الأصعب: كيف يعمل المجتمع لوضع علامته؟ ما هي معاييره؟ عاصي يقول، بما معناه، إن الجمهور بمجمله يحكم بشكل صحيح على العمل الفني. ويقول أحد كبار صنّاع أغنية البوب الأجنبية الجيدة في العالم (وذلك في عصرها الذهبي في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي) إنّ الجمهور ما انفكّ يفاجئه، فيعترف: «نعمل على أسطوانة من عشر أغنيات. نتوقّع النجاح للأغنية كذا، والفشل للأغنية كذا، فيحدث العكس! لم يحصل، على مدى عشرات الأسطوانات والسنوات، أن تشاركنا الرأي نحن، صانعي العمل وخالقيه، والجمهور... لكن، مع الوقت ندرك أننا كنّا مخطئين بتقديرنا وأن الناس تعطي الرأي الدقيق دوماً»! صحيح هذا الكلام، لكن يجب أن نضيف معياراً هاماً، وهو الوقت. إذ قد يمنح الجمهور (وبالأخص أو تحديداً في فترات الانحطاط) تقديراً عالياً لتفاهةٍ ما. لكن لم يحصل في تاريخ الموسيقى (والفن) أن دام ذلك طويلاً. فالتقدير الآتي من مجتمع مهووس بالترفيه، مشكوك فيه من نفسه. بمعنى أن المجتمع ذاته سينفر، بعد حين، من عمل أحبّه، لمجرّد أنه استهلكه. هذه حال مجتمعنا الآن، في لبنان والعالم أيضاً.

بين الموهبة والتعب والتفاني والعِلم والفطرة والسهر والصدق والإخلاص والإنسانية، حجز عاصي الرحباني خلوده بين أهمّ الملحّنين في التاريخ، على مدى العصور، في الشرق والغرب... اسمه الأخوين رحباني. لقبه فيروز. روحه زياد.